يا لتلك الليلة في نابولي

عبد الستار ناصر

مطموسٌ داخل لجة من الذكريات، في ليلة الفراق عن نابولي. ضاع مفتاحُ غرفتي وتركتُ الحقيبة هناك في تلك الغرفة المريضة. نظرة واحدة إلى «تينا» علّمتني أنّ النساء يُشْبهن السفنَ العملاقة: عندما تغرق إحداهنّ، تصرخ بكبرياء شريف.

أرملة تكنس نفاياتي، وتحمد اللّه أنني تركتُ المكان ولن أعود. عند بوابة قصر البابا، رميتُ مائة ليرة وأنا أبكي روما وميلانو والبندقية وتيريستا. أيُّ خرابٍ عاشه جسدي في زنازين النساء! أية بلوى أغرق فيها وأنا مرغَمٌ على مغادرة بلاد الطليان، مثل خفّاش في ظلمة سرداب عميق!

مزرعة من النرجس والتفاح. اللعنة! لم أتمكن مرةً في عمري من نزع جذوري عن بقية جلدي، عساني مرة واحدة طوال حياتي أعيش كما أتمنّى، أخرج من حرب مخللة بالكاري، أدخل في بيت يشبه دكّان القصاب، أطاوع الأشجار والأنهار ريثما يرتاح ضميري وأنا أترك خلفي ثلاثة من الجرحى لم أتمكن من إنقاذهم ما دامت عروقي تنزف وشهيقي يرفض أن ينتظم... كم بكيتُ، كم سأبكي، وأنا أسمع الليلة طبول زفافهم إلى المقبرة، بينما بقيت بعدَهم وأنا ملوَّثٌ بالحسرات وبالشجاعة التي فرضوها على ضميري وعشتُ فيها خمسة أعوام وثلاثة شهور، رأيت نفسي بعدها في نابولي تحت عطور «تينا» وهي تغازلني:

ـ أنا أحبُّ العرب.

قلت لها «شكراً» نيابةً عن كريستوفر كولمبس الذي اكتشف عزلتي ورماني إلى ساحل البحر. لا مسافة بيني وبينها غير خيط من الحرير، مزقته فوراً لئلا نختلف على مليمتر واحد هو السبب وراء ذلك الهلع العجيب من بنات «ترانستو»، بائعِ المخدرات الشهير، والذي كانت «تينا» أول نسله الجميل.

*

يومَ أنْ مضيتُ عن نابولي كان مهرجان «الحب» السنوي قد امتد حتى البحر الأبيض. أريد العودة إلى غرفتي؛ لا بد من أخذ الحقيبة؛ ففيها فقري وأمنياتي وصورة أمي، والكثير من أوراقي التي لا أفكر فيها. وقفتُ عند باب السيدة العجوز مالكةِ البيت، قلتُ بخوف مهذب:

ـ أريد الحقيبة يا سيدتي.

لا أدري لماذا ضحكتْ ولماذا رفعتْ ثيابها فوق رأسها وهي تصرخ بي:

ـ ارحمْ نفسك أيها المجنون، واذهبْ بسرعة لئلا أحفر قبرك بنفسي.

في مقهى «الدب» غرقتُ في فراغ فاتن. عربة خيول ونساء من النوع الضاحك. أمسك رأسي بيدي لئلا ينفجر هذا المسكين المتضرع. ماسح أحذية أغنى من أجدادي يقترب من حذائي، فأعتذر. أكتبُ اسمي كما يفعل الأطفال على جدران المدينة (من العيب أن أمرّ هكذا مرور الكرام)..

الشرطة تبتسم:

ـ عليك أن تغادر الميناء قبل مساء اليوم التالي.

ومالكة البيت (لا أدري لماذا ترفع ثوبها دائماً وهي تصرخ) ترقص قرب باب غرفتي:

ـ لعنة اللّه عليك وعلى مَنْ جاء بك إلى بيتي.

لم أفعل أيَّ شيء سوى أنّ «تينا» غازلتني دون بقية أبناء المدينة. لا أعرف عن نابولي أكثر مما تعرفه نابولي عني. تابوت ينتظرني في محطة من محطات العمر، ثوب فضفاض قصير أتحسسه بأصابعي وأبكي حرمان أبي وعمي وبقية عائلتي.. ماذا فعلتُ حقاً حتى يطردني هذا الشرطي الوسيم؟ سألته وأنا أحمل حزني بين يدي:

ـ ألا يحقّ لي سيدي أن أعرف ماذا فعلتُ؟

أستجير براهب معروف اسمه «ماتيو وولف» قلتُ له: أنا ممنوع من البقاء هنا، بربك أَخبرْهم أنْ لا ذنب لي حتى تطردني الشرطة، وجوازُ سفري يحمل تأشيرة البقاء حتى العام القادم يا سيدي العزيز.

قال ماتيو وولف وهو يبتسم كما يفعل الرهبان فعلاً:

ـ الدِّين يا ولدي لا شأن له بما تفعله الشرطة، والشرطة هنا يا ولدي لا شأن لها بما يقرره الدين، والقرار يا ولدي كما ترى سينفَّذ فعلاً... إلاّ إذا أراد الڤاتيكان غير ذلك.

تركني بسرعة، أسبقه بالكلام، يسبقني بخفة قدميه. قلتُ بصوت فقير:

ـ أنا لم أفعل ما يستحق الطرد.

لكنّه مضى ولم يلتفتْ.. وبرغم ذلك رحتُ أسابقه في

الطريق. وقبل أن يدخل الكنيسة وقفتُ أمامه مثل نمرٍ جريح وقلتُ بصوتٍ متسلطٍ قوي عنيد:

ـ اسمعْ يا ماتيو وولف، هذه هي المرة الأولى في حياتي ـ وقد تكون آخر مرة ـ التي أسمح فيها لنفسي أن أصدِّق أمثالك. كيف لراهب معروف مثلك أن يخاف الشرطة في بلد كهذا؟

قال بهدوء كاذب:

ـ أنا أستغفر اللّه لي ولك.

قلت له وأنا أغادره:

ـ استغفرِ اللّهَ لنفسكَ وحدك، وإنْ كنتَ على وفاق مع الضمير ـ أعني ضميرك أنت ـ فعليك أن تترك بيوت اللّه لمن يحميها من الشر فعلاً.

*

أخذوني عنوةً إلى السفينة «وابيلارد» وهناك أعطوني جوازَ سفري وهم «يطعنونه» بختم أحمر رأيتُ فيه إشارة القراصنة (عظمتان وجمجمة) وكلاماً يقول: «غير مرغوب فيه».

ما ألذّ تلك الكلمات الناعمة الهشة: «غير مرغوب فيه»! إنها تعطيكَ الإحساسَ بالخطورة والتفاهة معاً. ركبتُ رأسي مثلَ بغلٍ عنيد وقلتُ: لا بد أن أعود إلى ناپولي، لم أفعل أيَّ شيء حتى يحرمني هؤلاء الطليان من البقاء في جنة البحر الأبيض... لم أسرق، لم أغتصب، لم أكذبْ، لم أقتل، بل كنتُ في غاية النقاء والأناقة والطيبة.

هل تراني بكيت؟

ربما، ذلك أنّ الباخرة العظمى (وابيلارد) وقفتْ فجأة في برشلونة.. ولم يكن من حقي ـ أنا وحدي ـ النزول، وذلك يعني البقاء داخل هذا المكان أكثرَ من تسع ساعات حتى يعود الركّابُ من نزهة في شوارع الميناء الإسباني وزوايا برشلونة التي حرموني وحشيتها ونساءها ونبيذها المعتق وزهورَها ونكهةَ تاريخها الذي يُسكر الموتى أنفسهم.

كنتُ محضَ شخص «محجوز» لا يملك من الحق غير أن يشرب الماء ويأخذ الطعام إلى غرفته البائسة في القسم الثالث من وابيلارد.. الشمس تشبه سمكة القرش، أحسها تقترب مني، تريد أن تمزّق عظامي وبقايا هيبتي وصبري. كيف أعود إلى ناپولي؟ ليس من حلم عندي غير أن أرى حذائي يمشي ثانيةً على شوارعها، غير أن تعترف الشرطةُ ومالكةُ البيت وبقيةُ جيراني أنْ لا ذنب لي في أيّ شيءٍ سوى أنني أحببت تينا كما أحببتُ ناپولي.. ربما أعترف أمامهم أنْ لا شأن لي بتلك المخبولة التي تكسر بابي إذا ما رأته مغلقاً ذات مساء.. أنا لا أريد تينا.. المهم، أن يبقى حلمي طوقَ نجاتي، وأعيشَ ـ هنا ـ بين السمك البحري والصيادين والمغنين وباعة الحشيش. أريد البقاء فعلاً بين الكنبات الجميلة والنبيذ الطاووسي والقوارب الخشبية الرخيصة والصخب الذي لا يفهمه غير أهله. لا شأن لي بالنساء؛ تعلمتُ الحرمان من رابع أجدادي. أريد الحياة بين نشيج البحر والمطر والبساتين وروث البقر الساحر. أنا أموت من السعادة ـ حقاً ـ إذا ما تركوني بين الماء والسماء. لا أريد منهم غير السماح لي بما تبقّى من جواز سفري من وقتٍ وذاكرةٍ وضيافة.

رائحة خمر رخيص، تمشي خلف رجل أشعث الشعر، له شهيق داعر عنيف. إنّه نفسه، «ترانستو»، الذي رعبني يوم عرفتُ أنّ تينا هي ابنته الأولى. لا أمنع نفسي ـ الآن ـ من العيش في جحيم زفيرِه الغثّ، وسوف أعاقر الخمرةَ مثله وقت يشاء، لو أعادني إلى ناپولي.. إلى غرفتي، هناك خلف مقهى «الدب».. فهو يملك الحق مثل أيّ مواطن إيطالي طاعن في السن: أن يدعو إلى بلاده وبيته أيَّ شخصٍ من أيّ بلادٍ يريد. لكنّ رائحة الخمرة مرّتْ ولم أعثر على ترانستو في أيّ شبر من السفينة.

*

تحركتْ وابيلارد من برشلونة في طريقها إلى لشبونة، ولم أفتح فمي أمام القبطان؛ فأنا أعرف أنهم مرغمون على ذبح شرياني إذا ما نطقتُ بشيء.

أية مقبرة ملكية أن تكون بين الماء والحيتان، بين الصمت والدموع، بين الوقت والخوف، وأنتَ لا تملك أن تصرخ أو تبتسم أو تختار الحدود التي تريد!

عند الضوء الأول من الفجر، ليس من أحد يفهمني، لا أحد منهم أعرفُ ما سوف يقول. لكنّني بخبرة الأخرس وحذاقة الأطرش كنتُ أدري أننا سنعود ثانية من لشبونة إلى برشلونة، ثم إلى مارسيليا، ومنها إلى ناپولي حيث سنبقى ساعةً واحدة، ثم نمضي إلى ميناء الاسكندرية. وهناك، أخبروني وهم يضحكون، سوف أنزل في أرض العرب وأنام بقية عمري وأيامي في «الوساخة» التي جئتُ منها!

رائحة ثيابي: هيكل غامض من لبوة مريضة، حمير، بغال، وروث معطّر بالندى. لا أحد يسمح لي بالذهاب إلى الحمام. لم أكن بينهم غيرَ حمارٍ غارق في المحنة، أو ربما محنة على شكل حمار.

دون وعي صرختُ وأنا أشمّ رائحتي:

ـ لقد ضاع الحقُّ في العالم كله.

وما إن ترجموا كلماتي أمام بقية الركّاب حتى استيقظ القبطانُ مرعوباً من نومه العميق. اقترب مني، مهذّباً دون وقاحة:

ـ هذه السفينة لا شأن لها بما أنتَ عليه. الحكومة هناك في روما طلبتْ منّا أبعادَك عن أرضها. ونحن، كما تعلم، نخاف على رزقنا أن ينتهي بسبب راكبٍ واحدٍ لا نعرفه أبداً.

قلتُ له وأنا أحاول إمساكَ بكائي لئلاّ تنزلق الدموعُ وتفضح ما في روحي من وجه رهيب:

ـ خذ اقرأ يا سيدي، هذا جواز سفري. ما زال أمامي أكثرُ من نصف سنة قبل أن ينتهي السماحُ لي بالعيش في ناپولي.. هُم بأنفسهم أعطوني هذا الحق، فكيف تفسّر طردهم وأنا لا ذنب لي أبداً في أي شيء؟

وقف الوقتُ في تلك الساعة.. لم تتحرك عقاربُها مطلقاً.. كانت وابيلارد على وشك أن ترسو في الاسكندرية.. لكنني، لا أدري إنْ كنت أحلم أو كنت أغرق في الوهم، سمعتُ قبطانها يصرخ بصوتٍ جارحٍ قويٍ عنيد وهو يشير إلى أعالي البحار:

ـ سنعود إلى ناپولي.

قلتُ له:

ـ وما الفائدة يا سيدي؟ الشرطة هناك لن تسمح لي.

لكنّ قبطان وابيلارد ما يزال يردد:

ـ دعونا، وبسرعة، نَعُدْ إلى هناك.

فوراً رأيتُ الباخرة العملاقة تكسر رأس رحلتها بزاويةٍ قطرُها لا يوازي غيرَ كرنفالٍ عظيم، وهي ترجع نحو البلاد التي خذلتني. ماء البحر كثيف جداً. الأمواج تصعد صوب ركاب السفينة. ثمة من يضحك.. ثمة من يسأل عن السبب. ثمة من أراد قتلي (لأنني السبب الوحيد في هذه الرحلة العسيرة)..

ماء البحر كثيف جداً، والأمواج ما تزال تقفز وتضرب سطحَ الحيتان وسقفَ السفينة. عدنا إلى ناپولي في وقت قصير. هناك أنزلوني وحدي. كانت الشرطة قد اطمأنتْ إلى غيابي، وجواز سفري يحمل الختمَ الأحمر الذي يقول: «غير مرغوب فيه».

وبرغم ذلك تركوني أدخل المدينة. ذلك أنهم ـ دون ريب ـ يعلمون تماماً أنني ما إن أدخل ناپولي مرةً ثانيةً حتى أستيقظ من حلمي هذا وينتهي كلُّ شيء.

بغداد

رجل في فنجان

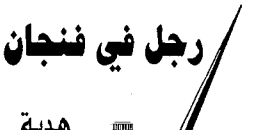

هدية حسين

نعم شربتُ القهوة. قد لا أتذكر في أيّ وقت: صباحاً أم عند الظهيرة، أولَ المساء أم قاب قوسين من انتصاف الليل. غير أني شربتها، لا شيء يجعلني أشك في ذلك.

لكنّ ما يدهشني حقاً، هو وجود فنجانين على الطاولة. فإذا كنتُ قد شربتُ فنجاناً فمَنْ يا ترى شرب الثاني، ولم يَطْرق بابي أحدٌ منذ أسبوع؟

ولكي أكون أكثر دقة، سأقول إنّ بوّاب العمارة طرق الباب مرتين: الأولى عندما طلب أجرةَ الحراسة، والثانية حين سلّمني قائمةَ المبالغ المستحقة للصيانة. ثم ما الذي يجعل امرأة ـ مثلي ـ تدعو بوّاباً إلى شقتها؟

صحيح أنني امرأة تعاني الوحدة منذ عدة سنوات، وطالما انتابني شعورٌ غامضٌ يستفزّ رغبتي في دعوة شخص ما ـ أيّ شخص ـ لمجرد الإحساس بأنني ما زلتُ على قيد الحياة. لكنّ جذوري الأرستقراطية لم تنحدر إلى حدّ دعوة بوّاب العمارة!

ومع ذلك يراودني شعورٌ، يتأرجح بين الحقيقة والوهم، بأنني ربما ـ ولخطإٍ مّا ـ قد انسقتُ الى دردشةٍ فَرَضَتْها طبيعةُ التعامل مع سكّان العمارة وطبيعة البوّاب نفسه، ومن ثم وجدتُ من اللائق دعوتَه إلى احتساء القهوة؛ فهو رجل ودود طيبُ القلب يعاني الوحشة مثلي. وبالتالي فإنّ الناس الذين يشعرون بالعزلة هم الأكثر شعوراً بالتآلف والانسجام؛ وإلاّ، فكيف أفسّر كلَّ ما أعرفه عن أسرته ـ إن لم أكن قد جالسته ـ: زوجته المريضة بالبلهارسيا، أطفاله الأربعة، أمه الضريرة، أخته التي اختفت في ظروف غامضة..؟

ياه.. مالي أفكّر بالبوّاب تحديداً؟ لِمَ لا يكون رجلاً آخر؟ رجلاً يليق بي كامرأة ما يزال يجري في عروقها زهوُ زمنٍ فاحشِ الثراء، متخمٍ بالمغامرات، برغم ما آلت إليه الحالُ من الفقدان والهرم؟

أجل!

قد يكون رجلاً آخر، ويمكن أن تكون امرأة... امرأة؟ كيف لم أفكر بذلك؟ نعم، لا بد أن تكون امرأة، بدليل أنّ الفنجانين مقلوبان، وهذه عادة تختصّ بها النساءُ دون الرجال لقراءة الطالع. مَنْ تكون اذن؟ الشقة المقابلة مقفلةٌ منذ سنين، أصحابها خارج البلد، ويبدو أنّهم لم يفكّروا في العودة. بقيت الشقتان الأرضيتان: واحدة تسكنها طبيبةٌ نسائيةٌ مع زوجها المقعد ـ وهذه ليست لي بها علاقة تصل حدّ تبادل الزيارات ـ؛ والثانية تشغلها أرملةٌ وأمٌّ لخمسة أطفال لا تجد وقتاً كافياً لزيارة أحد، وقد حاولتُ مرةً دَعْوتَها فجعلتني أندم على اللحظة التي استوقفتُها فيها عند مدخل العمارة ودعوتُها لزيارتي؛ فقد تحولتِ الشقةُ إلى ساحةٍ للعراك ولعبة كرة القدم، وأُفرغتِ الثلاجةُ من جميع محتوياتها.